كانت تولد وتكبر في القلوب.

نساء ريحانة أو ندرومة - لا يهم - يتنامين مثل حكايات الحب، مثل الريحان في محابس الطين الأحمر على رفوف النوافذ.

وكعادتهنَّ.

واحدة إثر أخرى خرجت أكثر من عشرية من النساء... كوكبة من الغزالات القلقة المعطرة الغيورة المتآمرة... خرجن من الأحواش لشم هذا الهواء المسائي المنعش... لتأمل السماء وللكذب مرة أخرى على النجوم؛ جميع نجوم اللـه العظيم... ينحتن أكاذيب جميلة ويجعلن لها أجنحة لتطير إلى أعلى...

النجوم كانت تكذب على النجوم.

صلاة الانتظار فوق الدَّفات البكماء.

من دون هذه النوافذ، بأخضرها، بحكاياتها، بنسائها وظلالها لم تكن لتوجد هذه السماء العالية الجميلة.

وفي هذا الحي المسمى الرفراف أو جانيتوه كانت النساء السحاقيات يمارسن في حرية

مطلقة حياتهن الجنسية العنيفة. على كل باب خشبيّ كانت حدوة الحصان مثبتة رمزًا للضيافة، كان السكان يقولون إن حدوة الحصان ليست إلا دعوة للمسافرين أولئك الذين يلقبون بأبناء السبيل إلى الراحة وتناول الطعام.

من على هذا السطح حيث كنت جالسًا أحضن آية بين ذراعيَّ، كنت أتأمل الأفق في عينيها؛ الأفق الذي مازال يحتفظ بآخر خيوط ضوء النَّهار، وكنت أسمع الضحكات المجنونة للنسوة المنتشرات في الأزقة المعتمة الرطبة وعلى عتبات الأبواب ذات ستائر الموسلين، التي ترفرف حين يتحرك تيَّار هواء الأزقَّة المتقاطعة.

عند هبوط الظلام تنفتح النوافذ واحدة تلو الأخرى. وكنت أشعر بما يشبه الخوف أو البكاء. وكانت أغاني ومراثي دفَّات النوافذ الخضراء وهي تدور على مصاريعها الصَّدئة ترتفع وتتصاعد كسيمفونية. قلبي.

كنَّ هنا في موعدهن الليلي هذا المساء: بعض النسوة مقرفصات متحلقات في صحن الدَّار المغطَّى بمرمر لمَّاع نظيف ملوث بالأصفر

والأزرق - حول فناجين القهوة المعطرة بماء زهر البرتقال وهنَّ يعلقن على كل شيء ولا شيء. الرجال! آه الرجال!

لم يكن يسمع إلاَّ صوت يشبه الموسيقى؛ حفيف أجنحة النحل؛ لغة عصافير سحرية.

أصوات الأمس نفسها؛ واليوم الذي قبله نفسها.. تحكي قصصًا أخرى.

صوت ينبعث من خلال فرجة مضيئة بين غصنيْ دالية، ويبدو أنَّه يصَّاعد إلى السماء مثل طائر سحري.

فتحت أخرى قلبها: باب السماء!

خطوات متناغمة راقصة للأرجل الرقيقة العارية الغارقة في أحذية ذات كعب طويل حاد كانت تقطع الأزقة.

الرؤوس مطأطأة تحت الدوالي حتَّى تنقي أغصانها وعناقيدها التي تعترض الوجوه وتلامسها.

هي خطاطيف الليل.

همسات: لغة عصافير عجيبة وخرافية.

عطر نعناع ينتشر وينبعث من مربعات حديقة الفناء المبلولة: الجنينة.

بسرعة البرق تحت نور العمود لاح ثغر امرأة بشفتين ممتلئتين متعطشتين مصبوغتين بالمسواك. ثم لا شيء.

امرأة أخرى أغلقت الباب خفية وفي سرية وانسحب خيال رجل. انتبهت الآن وللمرَّة الأولَى أنّ في زاوية هذا الزقاق نخلة كبيرة وحيدة ومنسية منذ سنوات قد ذهبت في السماء تاركة سعفاتها ذات اللون الأزرق الرمادي تتدلى على حيطان المنازل المجاورة.

من سمواتهن - كسرب من النوارس المترددة قبل الطيران - كانت النسوة يطردن ضباب الوحدة وظلال العتمة ويحلمن بالرجال وبهذه القصص حيث يدوم البحث عن المفتاح الذي يفتح القصر المشتهى سنوات وسنوات. كانت آية نائمة في أحضاني كملاك.

عند الفجر الذي حل بدأت الأزِقَّة تبدو أعلى من الضباب الخانق القادم من الغرب ومن الشمال، وهب نسيم صباحي منعش داعب وجه آية.

كان رأسها على ركبتي. النساء الأخريات كن

معلقات إلى نوافذهن وأعينهن مفتوحة على السماء العالية.

سرعان ما بدأت حياة صاخبة تقطع الأزقة الملتوية الساكنة.

يوم آخر قد بدأ... شمس أخرى.

وكنت أصغي وأتأمل السماء وفجأة تبخرت الألوان.

كنت أتابع الحركات البكماء للغريمتين.. للثعبانين: زهرة وسارة؛ أمي وزوجة أبي... اللتين تتقاسمان جسد نفس الرجل: أبي. كانتا تتقاسمان نفس السرير أيضًا. لم تكونا تتبادلان الكلام. هذا الصمت أو بالأحرى هذه الحرب الخرساء العنيفة مازالت دائرة منذ ولادة ذكر سارة الأول: أخي غير الشقيق إسحق الذي لم تُفارقْ قط عنقه الودعة المباركة السوداء. غير أنهما كانتا تتبادلان بعض رموز لأحاديث ليلية بمجرد أن تكونا على السرير الكبير: سرير الثلاثة - أبي ممددٌ في الوسط الذي يشبه شيئًا لا شكل له.

ثم لا شيء. وهكذا نسي الجميع أخي إسحق وبركة ودعته. لم يبق منه إلا هذه الحكاية.

من على هذا السطح كنت أسمع.

كان صوت الفقيه الأجشّ رئيسيًا طاغيًا قويًا. كنت أرتعد في صمت مختلج صاخب فريد. لم أكن أرى شيئًا. تلمست عضوي التناسلي الذي رد إلي برودة قاسية في كفي وأصابعي.

شعرت برغبة في التبول على جسمي.. في سروالي.

وكان الفقيه يقول إنه يحفظ عن ظهر قلب أشياء رهيبة:

"هذه الحالة - إذا جاز القول - لا تصنف."

لم أفهم شيئًا.

ضغطت على خصيتي بكفي الملطخة بعرق بارد. انزلقت كرتاي الصغيرتان في تجويف أسفل البطن.

"إنه امتحان اللـه. ولم يمنع ذلك الفقهاء وعلماء الشريعة والقضاة من أن يسنوا أحكامًا وقواعد صارمة ودقيقة لمعالجة هذه الظاهرة؛ هذه اللعنة التي تحط على نسل المسلمين ممَّن كان لأحد أقاربه علاقة جنسية قريبة أو

بعيدة مع الدم اليهودي."

كان أبي مسمِّرًا بصره بين ساقيه. لقد كان صامتًا كأنه في حداد.

وراح الفقيه يلح وهو يرفع صوته قليلًا.

"لنر أولًا ما هو تعريف الخنثى. إليك ما يقوله الكلبي الفيلسوف والمفكر الإسلامي: للخنثى عضوان تناسليان أحدهما ذكر والآخر أنثى. والعضو الذي يتبول منه أولًا بشكل رئيسي هو الذي يميزه."

هويت في غياهب صمتي.. جسدي كان يتحلل... يذوب. وأحسست بتعب وإنهاك كبير. كنت أفكر في سارة.

كان الفقيه يحتسي الشاي بالنعناع وهو يبصق من حين لآخر في إناء من الطين ما كان في فمه من تبغ؛ تبغ معروف بالعلبة الحديدية ذات الشكل الدائري التي يباع فيها، والتي كانت تحمل عبارة ماكلة الهلال. قبالته كان أبي صامتًا لا يقول شيئًا؛ كان حزينًا، رماديًا، مطفأ على شفا متاهة.. ورطة..

"... في حال التساوي يكون الإشكال، لأن كمية

البول الأصفر التي تخرج من عضو أو من آخر لا يمكن أن تكون معيارًا يعتد به، ينتظر بلوغه وظهور بعض خصائص الذكورة. إذا نبتت له لحية وإذا كان في وسعه أن ينكح امرأة، وإذا كان يقذف منيه، إذا احتلم، فإنه رجل. وعلى العكس إذا كان يحيض وله ثديان ناهدان أو يدران حليبًا وإذا كان في وسع الرجل جماعه فإنه امرأة."

لقد كان يتكلم عن أخي إسحق.

كنت متأكدًا من أن أمي كانت تنصت - من غرفتها - إلى ما يقوله ويستظهره هذا الفقيه عشيقها. كنت متيقنًا أيضًا من أنها كانت مصابة بالسعار والغيظ والقلق؛ وكنت متأكدًا من أن سارة كانت مرتعبة وهي تتابع خطبة هذا الأعمى هاوي اللبن وعاشق أمي زهرة. "... ولكن إذا لم تظهر أي واحدة من هذه العلامات والخصائص، أو إذا ظهرت ولكن بصفة متناقضة فإن الغموض والإشكال يكون أساسيًا... ونكون حينها أمام خنثى حقيقي. إنها اللَّعنة اليهودية؛ صرخة الدم اليهودي في عروق النسل المسلم!" ألحت علي رغبة في البول. كان عضوي التناسلي ينام في كف يدي اليسرى

مثل عصفور متعب وهو يطلق نوعًا من الدفء المتنامي شيئًا فشيئًا.. دفء روحي.

كان عطر سارة يصل إلى أنفي.

"... عندما يكون الإشكال حتميا والغموض صريحًا واضحًا فعلينا أن نتوخى الحذر وندرأ الشبهة: يصلِّي محجَّبًا بين صفوف الرجال وصفوف النساء."

رحت أدلك عضوي التناسلي. العصفور الصغير المتعب بدأ يستيقظ قليلًا مثل الحرير أولًا، ثم راح يتصلب شيئًا فشيئًا مثل قضيب صلب قاس.

صوت الفقيه الذي كان يشرح لأبي حالة أخي إسحق أعانني على إيقاظ عضوي التناسلي وانتصابه.

بحثت عن فرج آية الصغير ورحت أحكه بشدة. آية مازالت بين أحضاني. لقد كان فرجها دبقًا لزجًا. وللمرة الأولى تناولت آية عضوي التناسلي في فمها الصغير.

"... وإذا صلى في الصفوف المخصصة للرجال فإن المجاورين له مباشرة على الجانبين ومن

الخلف ومن الأمام عليهم أن يعيدوا صلاتهم وإذا أدى الصلاة في الصفوف المخصصة للنساء فإن عليه هو أن يعيد صلاته."

سكت. لم يكن حولنا - ونحن جالسان على هذا السطح - سوى العتمة والصمت وصوت الفقيه الآتي من الأسفل؛ من الصحن. ثم رحت ألحس فرج آية؛ وأدخل فيه لساني وهي تتلوى.

كان ساخنًا... لاهبًا! طارت آية سنونوةً، ثم ولجتها. صعدت شهقة في السماء - مملكة الشهوة - الملاك.

"... يمنع عليه ارتداء الحرير والحلي. خلال الحج لا يلبس المخيط ولا يسفر لا أمام الرجال ولا أمام النساء. ولا يسافر إلا ملثمًا. لا يختتن من قبل رجل ولا امرأة ولكن تُشترى له من ماله أو من بيت المال أَمَةٌ تقوم بختانه".

وشعرت بالغثيان.

"عندما يصبح راشدًا يمنع عليه حضور تغسيل الميت رجلًا كان أو امرأة. وإذا مات هو قبل تحديد جنسه فإنه يدفن دون غسل ولكن يجرون له تيمُّمًا.

ويكفن في خمسة أكفان وينصح بتغطية قبره بستار إزار خلال وضعه داخل القبر.

إذا أقيمت صلاة الجنازة جماعيًا - أي إذا صليت على أكثر من مُتوفٍّ - فإنهم يضعون الرجل أمام الإمام وخلفه الخنثى وخلفه المرأة وتقام الصلاة عليهم معًا."

كان رأسي يدور. وضع الفقيه يده اليمنى على المصحف واحتفظ بكوب شايه الساخن في اليسرى.

ويداي أنا كانت على فرج آية الصغير.

"... وفي الميراث عند الشافعي فإنه لا يأخذ منه إلا حقَّ الأنثى أي: للخنثى نصف حق الذكر. أما عند أبي يوسف فليس له إلا ثلاثة أجزاء من سبعة من التركة..."

فجأة ضاعت خصيتاي في تجويف أسفل بطني. كنت أرتعد. وفجأة استحال فرج آية الصغير قطعةً من جليد.

رتل الفقيه بعض الآيات القرآنية. على الدوام ينتابني شعور بالرهبة من كتاب اللـه. سحبت يديّ من بين فخذي آية. اعتدلت في جلستي

ورحت أردد ما كان الفقيه يقوله. آية هي أيضًا كانت تفعل الشيء نفسه.

"... إذا ثبتتْ عليه تهمة السرقة فلا تُقطع يده، وإذا تحتم أن يؤخذ منه القصاص والقود أوَّلُه، فيجب معاملته كامرأة سواء كان جانيًا أو ضحية."

ورحت أفكر في هذه اللعنة التي حطت على عائلتنا الكبيرة، والتي كانت السبب في فقدان أخي إسحق.. كانت السبب في اغتياله من طرف أمي زهرة. الدم اليهودي الذي يجري في الدم المسلم.

أحسست - ولست أدري لماذا - بأن أخي إسحق لم يمت... بأنه يتخفى في مكان ما: على أرض بين الماء واليابسة، بين الهواء والصلب. أحسست بأنه سيعود يومًا ما.

آية كانت بعيدة...

أيقظني صوت الفقيه.

"... هذا القانون الازدواجي الغامض سمح لبعض الخنثاوات أن يدخلوا عالم النساء السري وأن يكتشفوا ما ليس إلا للأزواج الحق

في رؤيته."

أمد أذني وأنصت.

أمد أذني وأنصت.

.// // // // //

.// // // // //

.// // // // //

.// // // // //

.// // // // //

أمد أذني وأنصت وأبحث عن ثغر آية.

"يروى أنه في أحد الأيام بينما كان رسول اللـه في بيته دخل علي أم سلمة أحد الغلمان المخنثين، وقد وَفَدَ من المدينة، ويدعى هيت وراح على مسمع من الرسول ﷺ يصف بطريقة جنسية مغوية ماجنة مفاتن إحدى النساء: "إذا قدر لك اللـه النصر في غزو الطائف، فسوف أقودك إلى ابنة غيلان. إذا أبصرتها من قُبُلها فإنك ترى لها بطنا له أربع طيات وإذا نظرت إليها من دُبُرها رأيت لها ثماني! ثغرها؟ حبة

كرز حقيقية! وما بين فخذيها إناء مقلوب..."
عندها قرر رسول اللـه ﷺ: إبعاده ونفيه
(حسب مسلم).

ثم طارت آية. تحولت إلى عصفور. أرادت أن
ترحل للبحث عن كوكب الزهراء. المرأة الهائمة!
بين أحضاني لم أجد غير العتمة والمرارة
وقصة إسحق. قبل مغادرة السطح قالت لي
آية: "بالأمس في حلمي سمعت بشار الخير
يغني وفكرت فيك... فلا تجعل النبوءة التي
تؤكد أن غناءه يبشر برؤية حبيب، برؤية عزيز
غال - تكذب."

جميع النوافذ كانت مغلقة؛ ميتة.

ثم لا شيء!

وهكذا نسي الجميع أخي إسحق، ولم يبق
منه إلا هذه الحكاية.

لقد كان خنثى!

أنا أنتظره.

رؤى فراشة

لقد تقدم الليل كثيرًا.

وصلت إلى بيتي. باب الدار نسي أو ترك مفتوحًا مواربًا.

أحسست بالراحة. لقد قمت أخيرًا بالحداد على أبي وأمي. للمرة الأولى تعرفت على اسم أمي الحقيقي الذي كان مكتوبًا على رخامة قبرها. أنا ابن أمي!

مع أن الباب كان مواربًا فقد أخرجت حزمة مفاتيحي.

كانت الدنيا مظلمة.

تقدمت في الرواق: صورة زوجتي في مكانها داخل إطارها الأصفر المذهب.

شممت عبق الغرفة المألوف ثم عطر زوجتي.

الكتب مبعثرة في كل مكان؛ على الطاولتين وعلى الأرض أيضًا. وهناك جرائد بالعربية وبالفرنسية.

تقدمت. أشعلت مصابيح الرواق الثلاثة. أحدها كان متفحمًا. قفز القط على ركبتي وهو يمُوء. لعله كان جائعًا. تأملته: لقد كان أنثى.. إنه ليس قطنا. إنه القط الآخر الذي كان يعيش مع آية.

خفت. حملته في ذراعي وشممت فيه عبق الحشيش ممزوجًا بعطر آية.

تقدمت. كان القنديل الموضوع على الطاولة مضاء.

وعندما فاجأت إسحق - نعم إسحق.. أخي غير الشقيق - في سريري يحضن زوجتي العارية تمامًا لم أندهش.

انتظرته طويلًا.

هو هنا هذا المساء... هو ابن أمه.

رحت أفكر في جده الذي كان تاجرًا ومهربًا شهيرًا للمخطوطات؛ ذلك الرجل الذي كان قديمًا يملك مملكة من الكتب والرقاق المكتوبة بالعربية والعبرية والتركية العثمانية، لقد كان هذا الجد متصلبًا عنيدًا لم يصافح قط أكلة الخنازير. لقد كان يضع قفازين من جلد الماعز حتى يتجنب مصافحة أي رومي: حتى لا

يلمس اليد النجسة. هذا الجد الذي أنهى حياته على كرسي متحرك وزجاجة الأنيسون بين شفتيه.

لست أدري لم أفكر في هذا الرجل؛ جد إسحق - الهارب من دمشق؛ رحالة الصحراء، اختصاصي خمر النخيل اللاقمي ومنظم سباقات المهاري والخيول وسباقات الحلازين وصياد الغزلان والأروية. هذا الرجل الذي يقول عنه أهل ريحانة أو ندرومة - لا يهم - إن عينيه تستطيعان أن تتفرسا ولو بعد أشهر آثار بهيمة ضائعة مفقودة وأن تتبينا ولو من خلال أثر واحد لخطوتها هل كانت صاحبتها جميلة أو دميمة... النساء اللواتي كن يحملن في الهوادج على ظهور الجمال: ملكة سبأ. نظرت إليه... إسحق.

كان غارقًا في ذاته. لقد كان هو وليس شخصًا آخر. أخي، أعرفه متعبًا كما النعسان حملق في زوجتي وهو يصعد زفرة عميقة متصلة منكسرة. ثم نظر إلي مطولًا وعلى مهل استدار لينام وهو يجذب عليه وعليها غطاء ورديًا معطرًا نظيفًا. وبصوت عسلي عميق أسرَّ في أذن الميتة عبارة رقيقة: "طابت ليلتك.. طاب موتك!"

تأملت الجسدين العاريين وأنا أحملق.

طار النعاس من عينيه فاستدار إسحق إلى زوجتي الغارقة في طمأنينتها الباردة وضمها بين ذراعيه. الجسد العاري ببشرته البيضاء الفضية المضيئة مازال في مكانه.

اللحم مثل الحرير يصحو من موت معلن. كانت بلا حراك ساكنة فاتنة. وكان ممتلئًا برغبة متعطشة وشهوة صارخة. وبحركة سحرية داعب فرج زوجتي - أحسه دافئًا يطلق رائحة فردوسية. لقد سكنه الدفء واستقر في أعماقه. قبل زوجتي على ثغرها ذي الشفتين الممتلئتين الحمراوتين. ثم كما في صلاة طبع قبلة على فرجها الذي يعلوه زغب ثم قبلة أخرى على نهديها المنتصبين المغريين. ثم وطئها. وراحت زوجتي من موتها تطلق في أذني إسحق شهيقًا متصلًا وتنهدًا متوحشًا.

الذئبة!

من على حافة السرير كنت أصغي. أتفرج.

ثم دفنت نظرتي.

نظرت إلى قدمي العاريتين وحدقت في

أصابعي العشر الوسخة المقرفة.

شيء غريب.

كانت أمي تقول لي وتردد: "لقد ورثت عن أبيك أصابع قدميك إنها نسخة من أصابعه."

تفحصت أكثر أصابع قدمي العشر القذرة.

راح صرير أرجل السرير يعلو... تك؛ تك تاك...

انتبهت للمرة الأولى أن لي إصبعين ملتصقتين: الصغرى تنام تحت الأخرى الأكبر. انفجرت ضاحكًا. زوجتي تنام في موتها. لم تعد تتحرّك. وكيف تستطيع المكوث هكذا دون التفات؟

دلك إسحق أسفل بطنه.

اكتشفت اللحظة أن قدمي مشوهتان.

أخفيتهما في جوربين وسخين تعودت أن أخفيهما تحت السرير الذي يصر. لم أكن أود أن يطَّلع أخي وزوجتي في موتهما أو في سفرهما على هذه الدمامة وعلى هذا القبح. زوجتي تحب العطر والروائح الزكية. لم تنس قط أن ترش بالعطر أغطية فراشنا ولا تبابيني

وملابسي الداخلية.

ليس لأصابع قدمي أي شبه بأصابع أبي. قدماي أصغر وإصبعاي الكبيرتان بلا أظافر وتحملان نتوءًا مثل الحافر. أمر غريب!

آية، أختي غير الشقيقة التي جربت معها رجولتي وبلوغي لأول مرة، في سن الحادية عشرة وربما أكبر قليلًا - قالت لي: "- لك عينان تشبهان عيني أبيك".

لماذا أفكر في كل هذا؟ خلسة عن كل العالم من حولي نظرت إلى نفسي في المرآة، استرقت نظرات خاطفة إلى وجهي ببشرته التي كانت باستمرار شاحبة أو بيضاء. بحثت عن أبي في ذاتي دون جدوى. لا أثر. لم يكن مسموحًا للذكور أن ينظروا إلى أنفسهم في المرآة.

المرايا هي مملكة النساء والفتيات. إنها مثيلاتهن. كنت أتأملني خفية في مرآة أختي آية. كانت تملك ثلاث مرايا: واحدة ترى فيها عينيها وأخرى تتأمل وتقيس فيها ارتفاع وانتصاب نهديها الرائعين اللذين ينفران من صدرها يومًا بعد يوم. أما المرآة الثالثة فكانت

أكبر ومكبرة وكانت تستعملها في التفرج على قدها وخصرها النحيل الممدود الذي كان يكبر أكثر فأكثر كل صباح.

فحصت ماء عيني بعمق. أغمضت عيني ثم فتحتهما. أطلْتُ تفحُّص العين اليمنى التي وجدتها أكبر من اليسرى بقليل. ورحت أتأمل عمق لونهما اللوزي.

وهربت من المرآة، سحبت منها ملامحي. امَّحيت. نظرت إلى زوجتي في موتها البهي. لقد كانت فاتنة مغربية. كانت تنام كالطفلة بين ذراعي إسحق. يبدوان ملاكين. إثمين كبيرين.

لماذا أفكر في كل هذا؟

ليس صحيحًا: لم تكن عينا أبي تشبهان عيني لا في الشكل ولا في اللون ولا في النظرة. كان عمق نظرته بلون الماء... زرقة تغير سماءها مع اتجاه الريح وقوتها ومع تعاقب الفصول التي لها بدَورها حرارتها وقصصها.

عل ـى ك ـل ليس ـت ل ـي عين ـا أب ـي. عين ـاه ه ـو ك ـانتا أكث ـر وداع ـة وأكث ـر جم ـالًا وس ـماوية ف ـي زرقت ـهما، أم ـا عين ـاي فل ـيس ل ـهما ق ـاع. هم ـا محفورتان لا تقولان

شيئًا ولا تتنغمان بلحن.

توقفت طقطقات السرير الذي كان إسحق وزوجتي راقدين عليه. كانت زوجتي تقول لي إن عيني لوزيتا اللون أو عسليتان ولهما عبق الإثم... لا أدري!...

دون أن يعلم أحد - وللمرة الأخيرة - حدقت طويلًا في لون ماء عيني: إنهما سوداوان... وماذا يهم!!... وهما يعبقان برائحة الخطيئة وعطر التيهان والشرود.

أصغر أخواتي جوهرة كانت تؤكد لي أن شعري مثل شعر أبي.

لقد نسيت أن أخبركم أنني أخ لست أخوات: رحيمة ومليحة وربيحة وفهيمة وكاهنة وجوهرة. هذا ليس مهمًا!.

أنا عشت داخل مملكة البائسات.

كن تقريبًا في نفس السن، لم يكن بين الكبرى والصغرى أكثر من خمس سنوات كفارق زمني. كن يلبسن نفس الثياب وينتعلن نفس النِّعال، وكانت مقاساتهن واحدة، وكثيرًا ما كان العراك يحتدم بينهن حول الملابس والأحذية، وخاصة

حول الخرق والمناديل التي تستعمل خلال الدورة الشهرية، قماش ما بين الفخذين.

لقد كن يتجاذبن الشعور ويتقاذفن بالشتائم والألفاظ البذيئة، إنهن يصبحن شرسات مجنونات أيام الحر في الصيف وخصوصًا في الأيام الثلاثة التي تأتي بعد فترة العادة الشهرية.

كان شعر أبي أشقر ناعمًا وكنت أغار من طريقة تسريحه وتمشيطه. وكان يقف منتصبًا مثل ممثلي السينما الإيطالية. تأملت نفسي في المرآة. ليس لدي على هذا الرأس المدور، غير نتف سوداء شعثاء متسخة، لماذا أفكر في كل هذا؟

كالعادة وككل مساء، كانت أخواتي الست يعبثن بعضوي التناسلي، كن يتناوبن على تناوله وإدخاله في أفواههن اللزجة الرطبة، كن يرضعنه، لقد كبر في هذه الأفواه الستة.

وكنت أعشق لعبة الفم والعضو التناسلي هذه. وكان ينمو كل يوم سنتيمترًا.

لقد كنت مدللًا. أمي كانت على علم بما تفعله أخواتي الست بعضوي البائس. كانت تتظاهر

بأنها لا تعلم شيئًا ولا ترى شيئًا.

آه! أمي: أعرفها... هي من عجينة فريدة.

آية... هي أيضًا كانت مدللة. بعد كل موعد لعادتها الشهرية كانت أخواتي الست يساعدنها على حل ضفائرها وخلط شعرها بجدائل من الصوف مصبوغة بالأحمر والأسود. كن يجدن هذا مسليًا.

لم يكن لأخواتي الست من شاغل سوى عضوي التناسلي وضفائر آية. لقد كانت أخواتي الست يكتشفن مع كل مساء تمائم جديدة حول أعناقهن أو خصورهن أو تحت المخدة أو في ملابسهن وفي الخرق التي يستعملنها لدم حيضهن. تمائم: بعض قصاصات الورق المكتوبة بالعربية، بعض الآيات... بعض كلام اللـه أو الرسول عليه السلام مكتوب على وريقات كنَّ يخفينها في شعورهن... لقد كان هذا ما يشغل أمي زهرة ويقلقها... هاجسها.

وحتى تنال أمي بركة الفقيه ورضاه كانت تهرب وتهدي كل ما كان عندنا: فاكهة، بنًا، سكرًا، بيضًا، زبدة، دواجن... إليه. بعض كلمات تكتبها

يده السحرية على ورقة مدهونة أو ترسمها على قاع صحن من الطين الأحمر تذوب في قليل من الماء لتشربها أخواتي العانسات، وهكذا تحل بركة السماء ويحط الحظ. ولكن دون جدوى!

في تلك السهرة المشهودة انضمت إلينا أمي في تلك الغرفة الضيقة الطويلة التي لم تكن لها نافذة. غرفة عارية ليس بها إلا مخرج يعكس ضوءه بطريقة غريبة ظلالنا على الحائط المبيض بالجير... حيث تبتلع بناتها الست بشراهة عضوي الحميمي وهن يتناوبن عليه من الكبرى إلى صغراهن: رحيمة ثم مليحة ثم ربيحة ثم فهيمة ثم كاهنة وأخيرا جوهرة. تقدمت أمي زهرة في فستان حريري أزرق كحلي طويل بخطوة متباطئة حذرة محترسة.

انطبع في نظرتها تعبير دقيق عدواني ماكر في آن، سلَّطتهُ علي حارقًا، خفضت بصري... دفنته بين قدمي: ثم غمغمت: "الفاهم الحاذق من غمزة والحمار بالدبزة" كان في يدها منديلٌ حريريٌّ عليه وَشْيٌ يصور واحات وسعفًا. وبسرعة لفته حول عنق أختي الكبرى. وراحت تشد بقوة، بقوة، بقوة، بقوة....

لم تتحرك أختي، لم تبد أية مقاومة، كأنها كانت تنتظر هذا التصرف من طرف أمي... منذ...

تابعت المشهد حتى اللحظة التي صار فيه وجه أختي أزرق، زرقة بحر... ثم زرقة مسودة.

أشحت ببصري.

لم تصرخ أختي رحيمة، لا شيء... لا شيء البتة.

أنا لا أحب البحر، لا أحب الزرقة!

نظرت إلى وجه أمي، لقد تغير لونه، لقد غزته مسحة خفيفة وردية من فرح ورضا، ثم نقلت بصري إلى وجه أختي، لقد كان هادئا في صمته وسكينته العميقة... في زرقته... في زرقته المسودة، بهدوء وبحركة متناسقة ساذجة جذبت أمي منديلها. أخرجت لحافا أبيض جديدا من علبة تغليفه ونشرته ثم غطت به وجه أختي... سترت به زرقتها وصمتها.

هكذا ومنذ ذلك الحين لم أر قط وجه أختي الكبرى.

لقد كانت بلا حراك. ثلاث من أخواتي بلن في

ثيابهن وأنا كذلك. ومن حينها لم يدخل عضوي التناسلي إلى أفواههن الرطبة اللزجة.

ولم تكن أخواتي الأخريات ينتظرن إلا دورهن... ساعة المنديل... ثم دفنها أهل ريحانة أو ندرومة - لا يهم.

وزارة الدفاع هو الآخر وللمرة الأولى في حياته بكى ميتًا: أختي يوم دفنها، وبدافع الغيرة هجرته زوجته الجديدة ذات الاثنتي عشرة سنة التي جامعتها بعد سبعة عشر عاما بين قبري والدي. هجرته مدة ثلاثة أشهر، كانت تعتقد أن وزارة الدفاع يخونها مع أختي، لم يكن ذلك صحيحًا. بعض من أهل ريحانة أو ندرومة - لا يهم - كانوا يرددون أنه منذ يوم دفنها هجر فراش زوجاته الثلاث.

سبعة أيام بلياليها امتنع خلالها عن أكل الأرانب التي كانت تعيش وترعى في المقبرة بين القبور وعظام الموتى.

أبي من جهته ومنذ اليوم التالي لدفنها قرر الرحيل للحج. وقرر هو الآخر الانقطاع عن استهلاك الخمر، في الواقع لم يتوقف أبدًا عن هذه الهواية حتى بعد عودته من البقاع

المقدسة.

وصرت أنا منبوذًا مهجورًا... عضوي التناسلي هو الذي صار كذلك من طرف الأفواه... الأفواه الخمسة الباقية. من عمق سواد الليل كنت أصغي - كما في حلم - إلى تمتمات أخواتي وهي تقطر كنسيج من ماء الحياة في أذني. أذن الثعلب!

أصوات خطاطيف في الغسق.

وعندما تنتهي الثرثرة يكون كانون الحكايا قد خمد ولم يبق غير خيط رفيع الدخان يتصاعد من رماد الرؤوس الخمسة. من حينها لم يزر عضوي التناسلي أيًا من الأفواه الخمسة، إلا مرة واحدة حدث هذا بعد ذلك بمدة مع آية.

قطرة الندى الأخيرة في اليد.

بلاغة السفاد

"الطير الحرْكِيْ يقبَض ما يتحركش".

جالسا على ركن السرير أصغي، أتأمل.

لقد عاد إسحق هذا المساء. هو بيننا. بين أحضان زوجتي، هل ماتت؟

هل تمارس المتوفيات الجنس؟

الشهوة الأنثوية لا تموت أبدًا.

عندما فرع من وطئها غطاها بلحاف وردي، من بين شفتيها أخرجت ابتسامة ملائكية قداسية. وشيئًا فشيئًا لطخت ثلاث قطرات من منيه اللحاف الوردي تحت ضوء أبيض مزرق ينبعث من قنديل السرير.

كان ينظر داخل عيني زوجتي السوداوتين نصف المفتوحتين، وابتسامة خفيفة معلقة على شفتين مازالتا ملونتين بحمرة غزالة. ابتسمت له... في موتها، في صمتها، في غيابها أو في بستان شهوتها ورضاها.

وسكنته من جديد الرغبة في أن يواقعها،

أحس نفسه متعبًا، قبلها، ضمها إليه، شعر بها باردة ثم دافئة.

عضوه التناسلي الصغير المحاط بزغب شبيه بعصفور صغير كان يبعث دفئًا، ورائحة ريحان كما من جنة عدن.

ورحت أفكر في خطبة الفقيه عن الخنثى.

إسحق الخنثى.

تسللت داخل السرير. تمددت بين زوجتي وإسحق... أخي فر النعاس من عيني.

غادرت السرير.

حضرت لي فنجان قهوة، أنا أحب القهوة بلا سكر. وفي انتظار القهوة تناولت كأس نبيذ. أحب أيضًا بل أعشق - وربما أكثر - الكؤوس التي أصب فيها نبيذي، زوجتي هي أيضًا تعشق أشكال الزجاجات والقنينات والملصقات السوداء على بطونها. منذ عامي الأول مع هذه المرأة وأنا أجمع الزجاجات والأكواب الخاصة بشرب النبيذ. لقد كنت دومًا أحب خصور قناني الزجاج المملوءة خمرًا مثل امرأة جميلة مليئة بالأسرار والإغراء.

"أحب سر المرأة وسر الخمر!"

هي تحب القناني المصنوعة بذوق جمالي رفيع... القناني التي اقتنيتها خلال كل سفر من أسفاري.

كنا نقضي سهرات، بل ليالي كاملة نعيش الوقت فيها - كل الوقت - نمارس الجنس ونتأمل في شكلٍ طقوسي صفًا من القناني لعشرات الماركاتٍ من النبيذ.

أحب شكل زجاجة الأورانجينا، شكل هذه الزجاجة يليق بالنبيذ وليس بعصير البرتقال، كنت أردد لزوجتي باستمرار أن هذه الزجاجة متخيلة عن الجسد المغري لراقصات الفلامنكو الأندلسيات.

لقد لسعتها الغيرة عندما سمعتني أقص قصة راقصة الفلامنكو.

حتى القصص الجميلة والأكاذيب البهية تشعل الغيرة في قلوب النساء والرجال.

ينام إسحق نومًا عميقًا مثل طفل. من حين لآخر يحك أسفل بطنه، عادة سيئة حسب أمه سارة، بذل جهده لينساها، لكنها عادةٌ تلازمه

حتى خلال نومه.

هذا المساء تأكدت أن أبي قد رحل، لن يعود اليوم ولا غدًا.. لن يعود أبدًا، رجعت إلى سريري بين زوجتي وإسحق، وجدته قاسيًا صلبًا مثل تابوت.

زوجتي تتحرك في موتها. انتابتني رغبة في أن أجامعها... في أن ألون حلمها بالمني. هي تحب ذلك!

ممددًا إلى جانبها كان إسحق يشخر ويفرك أسفل بطنه، ورحت أفكر في قبر أبي. وشرعت أرتل بعض الآيات القرآنية، يقال - حسب الشيخ النفراوي - إن قراءة القرآن تهيئ الجماع وتيسره... القرآن إذن هو الكلام الطقوسي. المقبِّل المسبب للجماع، أحب قراءة القرآن.

كثيرًا ما كنت أقرأ القرآن باكيًا... إنها حالة روحية. أكره الفقيه، هذا المجنون عاشق أمي زهرة.

كنت أعلم أن زوجتي لم تمت، لقد كانت مسافرة! النساء لا يمتن، لا يمتن أبدًا، إنهن تُسافرن. وغادرت سرير الثلاثة.

سحبت جسدي... جثتي.

جالس على ركن السرير وقدح النبيذ في يدي، أعري ببصري تقاسيم زوجتي، إنها جميلة في موتها، وابتسامتها الخفية المرتسمة في عينيها - فاتنة وماكرة!

وعندما التفت كان القدح في يدي فارغًا.

زوجتي لم تكن هناك.

لقد طارت.

أنا أحدق وأحملق في الجسد الذي مازال ممددًا على سريري: إنها آية.

إنها طليقة مبتسمة ودون سلسلة حول المعصمين.

Notes

[1←]
الماء الحيّ أو ماء الحياة هكذا في النص الأصلي.

[2←]

الجاموس: حوافر الخيل أو أظلاف البقر.